الباب الثانى

دراسات اللغة والشعر فى القرن الثالث

الفصل الأول

دراسات اللغة

للقرآن فضل كبير فى تطور دراسات اللغة ، والنقد اللغوى[1] ، ولم يكن حرص العرب على اللغة الأصلية — لغة البدو — وتشددهم فى المحافظة عليها إلا رغبة منهم فى حفظ لغة القرآن ليظل مفهوماً مقروءاً ، متدارساً .

وقد بدأت الحركة اللغوية فى مطالع القرن الثانى من الهجرة ، عندما تم الفتح الإسلامى واستقرت أصول الدولة الإسلامية ، وانتشر العرب فى الأقطار المفتوحة ، واتسعت معهم رقعة اللغة العربية ، وانسحب ظلها على كثير من البلدان ، فكان لانتشارها فى تلك البقاع الواسعة أكبر الأثر فى تطور الدراسات اللغوية والنقدية .

وكان القرآن دافعاً غير مباشر لانتباه سكان تلك البلاد إلى اللغة العربية ، فالقرآن كتاب العربية الأول ، ودستور الإسلام الدين الجديد ، والعربية لغة المسلمين الفاتحين ، ولغة السلطان والدولة ، والأدب ، والكتابة ، والسياسة ، والحكم ، وعلى من أراد الزلفى إلى كل هؤلاء أن يتقنها وينبغى أن يحفظ القرآن ليقوم من لسانه ، وللقرآن ما يعين على فهمه من الثقافات مما لا ينبغى أن يفوته منها شىء ، كالتفسير ، ومعرفة الغريب ، والإلمام بالنحو والشعر .. وغيرها .

(١) يسميه بعضهم فقه اللغة فى كتب العربية .

وكان لزاماً على أصحاب السلطان وكتّابه أن يتعلموا أصول الكتابة العربية الفصيحة ، ولن يتسنى لهم ذلك دون الرجوع إلى القرآن ، وحفظه ، للاستشهاد بآياته ، وترصيع كتاباتهم بها .

ودعت الحركة الفكرية فى هذه العصور إلى التزاوج بين العقول ، والتداخل بين الثقافات ، فأقبل الفرس على تعلم القرآن ، وعلوم العربية فى حين بدأ العرب يتطلعون إلى ثقافات الفرس وغيرهم يمزجون بها تراثهم .

وجلس علماء المسلمين فى مساجد الأمصار ، والتف حولهم الناس يرتوون بالعلم ويتزودون بالمعرفة ، وكان أول ما طرقه هؤلاء من مواضيع الدرس تفسير القرآن . واشتهرت مساجد البصرة والكوفة بحلقات الدرس ، وازدهر فيهما التفسير وعلومه ، واللغة والشعر ، وكان العلماء يتناولون كتاب الله بالشرح والإيضاح ، واشتمل هذا الشرح على جوانب مختلفة من الثقافات ، كالأخبار ، والقصص ، وسيرة النبى وأصحابه وأخبار العرب ، والأمم البائدة ، وما جاء فى الكتب المقدسة مما يوضح قصص القرآن إلى غير ذلك .

وجلس إلى علماء المساجد تلاميذ من العرب والموالى الفرس وغيرهم من أبناء الأمم المفتوحة وكان هؤلاء العلماء يبسطون القول لتلاميذهم باللسان الذى يفهمون ، فكان الأسوارى — مثلا — يتكلم فى مجلس البصرة بالعربية والفارسية يفسر القرآن للعرب والفرس على السواء .

ونشأ بعد ذلك جيل جديد من المثقفين الذين وضعوا الثقافة العربية ، التى غلب عليها القرآن وتفسيره والحديث — ممزوجة بلبان أعجمى ، هذا الجيل هم طبقة الموالى — وكانت معرفتهم بالعربية معرفة محدودة — سمها مدرسية إن شئت — ، وكانت رغبتهم فى فهم القرآن ومعرفة أسرار إعجازه فى ازدياد . لأنهم لم يدركوها بسهولة إدراك العرب لها . وقددفعت هذه الرغبات علماء العرب وغيرهم ممن أتقنوا العربية من الموالى إلى التزود من اللغة لشرح غريب القرآن ، ومشكل بيانه ،

مستعينين فى ذلك بالشعر قدر الإمكان .

وزاد الإقبال على دراسة القرآن واللغة والشعر ، فبدأت حركة كبيرة لجمعهما ، وخرج العلماء من العرب والموالى للتحصيل من البوادى ، فتجمع لديهم كثير ، وامتلأت صحفهم وخزائنهم .

وكانت حركة الجمع تهدف — أول الأمر — إلى خدمة التفسير ، ثم إلى التنقية اللغوية . لكن هذا المحصول الغزير لم يخل من الخلط والانتحال ، وكان هذا نتيجة الإسراف والتنافس للحصول على الغريب . ومهما قيل فيما شاب تلك الحركة فإنه لا يمكن إنكار فضلها على اللغة والتفسير . ولا يليق بنا أن نتجاهل نفعها العظيم إذ كانت ذخيرة لا تنفد ، ظل الخلف ينفقون منها ، ويتناولونها بالتنقية والتصفية . والتبويب والدراسة والشرح ، ويستخرجون القواعد والأصول . . إلى غير هذا مما كان الشغل الشاغل لعلماء القرون التالية .

وبدأت مع هذه الحركة - أو فى مرحلة متأخرة قليلا — حركة التأليف فى اللغة والشعر ، وظهرت فى أفق تلك الدراسات الكتب اللغوية ، والشعرية . وتميزت المرحلة الأولى فى كتب اللغة بالجمع فى صور شتى . فقد تجمع كل مجموعة من الألفاظ تحت اسم فى كتاب . أو باب من كتاب ، يجمعها تقارب المعنى أو تضاده ، أو تقارب المبنى ، أو صيغ الألفاظ ، واستعمالاتها الصحيحة ، أو جمع الألفاظ اللغوية فى ترتيب خاص حسب الحروف الأبجدية ، أو حسب مخارج الألفاظ . . . إلخ .

وكان من نتائج اختلاط العرب بغيرهم أن شابت اللسان العربى بعض الشوائب الغريبة فانتابته ليونة أحياناً ، وتحريف ، أو تداخل بعض ألفاظ أعجمية . وأخذت اللغة تنحرف عن بدواتها ، وتفشى اللحن ، واختلطت اللهجات ، واضطرب النمط بين هذا وذاك . ونشأت لغة جديدة فى الأمصار الإسلامية تناقلتها الألسنة ، وصارت لغة التعبير اليومى . العامية تختلف

عن اللغة الأصلية – لغة القرآن . واتخذ الأدباء والكتاب والشعراء لأنفسهم لغة وسطاً بين هذه وتلك ، وظهر هذا الأسلوب الجديد واضحاً فى كتابات ابن المقفع وشعر بشار ، وهو أسلوب يجمع إلى السهولة وتجنب البدوى الوحشى – التنميق والتهذيب مما يساير حياة الحضارة والمدن[١] .

واحتدمت المعارك اللغوية بين الشعراء واللغويين . وبين اللغويين أنفسهم نتيجة هذه التيارات الجديدة . وظهرت طبقة الموالى بين هؤلاء وهؤلاء ، وأخذوا يدرسون العربية دراسة منهجية تعتمد على القواعد والمنطق . وحاولوا أن يخضعوا اللغة للقياس ، فخطأوا العرب أحياناً واعترضوا على بعض ألفاظ القرآن ، وتعبيراته أحياناً . وغالى بعضهم فى الشعوبية فعاب على اللغة المجاز ، والترادف ، والأضداد وغيرها من الظواهر الأخرى .

وتطرف منهم ذوو الأغراض فدسوا على اللغة كثيراً مما يجدون فيه شبهة من قريب أو من بعيد ، ولم ينقصهم الشاهد لأنهم اصطنعوه كلما رأوا إليه حاجة .

وقام بعض علماء المسلمين المخلصين يذودون عن العربية ، ويدفعون عنها ذلك كله ، وبذلك برزت حركة التنقية اللغوية ، وكان للقرآن فيها شأن . وقد بدأت هذه الحركة بدء القرن الثانى . وقام جماعة من العلماء دأبهم أن يجعلوا نصب أعينهم « تحديد الاستعمال اللغوى الصحيح »[٢] فوجهوا همهم إلى الأعراب ، يلتقطون من أفواههم اللغة السليمة ، ووضعوا القواعد والأصول يضبطون بها الإعراب على أصول من الاستقراء الدقيق والملاحظة والإحصاء للغة الأصيلة القديمة ، واتجهوا إلى الشواهد الصحيحة وحصروها فى العصر الجاهلى ، وصدر الإسلام بشرط الأصالة والبداوة وعدم التطرف إلى الشمال . لذا اعتبر عدى بن زيد من بين من لا يستشهد بشعره . واعتبر أبو عمرو بن العلاء

(١) راجع العربية جوهان فك ٥٩ .
(٢) نفس المصدر ، ٤٧ .

الفرزدق وجريراً ممن لا يستشهد بشعرهم كذلك .

وصارت اللغة الفصحى لغة البدو ، وهى المنشودة فى دراسات اللغة لتخليصها من الدخيل . وصارت لغة القرآن الحكم بين اللغات ، والتى تفصل بين الفصيح وغيره ، فالأصمعى فى القرن الثانى وأول الثالث — يرفض لفظ زوجة بدلا من اللفظ القديم زوج — وهى صيغة جديدة وردت عند الفرزدق من قبل كما وردت عند ذى الرمة — رعاية لاستعمال القرآن اللغوى[١] .

وكان الأصمعى على رأس حركة التنقية اللغوية فى أوجها ، ولم يكتف بجمع المادة اللغوية من أفواه البدو ، وترتيبها فحسب ، بل شرع كذلك فى تنظيم الاستعمال اللغوى الدقيق بوساطة تحديدات معنوية غاية فى الدقة[٢] .

وبدأت دراسات ضبط الإعراب بمحاولات النحويين . ويلخص ابن خلدون أثر القرآن فى نشأة الدراسات النحوية فيقول : « فلما جاء الإسلام ، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول ، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمستعربين ؛ والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع . وخشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول بها العهد فينغلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة »[٣] .

وأخذت هذه الدراسات تنمو وتكتمل منذ أواخر القرن الثانى بعد أن ألف سيبويه كتابه وفجر القرن الثالث حيث أخذ الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة يبرز ويضطلع به أئمة النحو من الفريقين .

(١) العربية ٤٣ .
(٢) نفس المصدر ٤ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٢ ط عبد الرحمن محمد .

وحاول علماء النحو من أول الأمر أن يخضعوا اللغة لمقاييسهم تبعاً للقواعد والأصول التى أوجدوها ، وتعرضوا للشعراء ، وأخذوا عليهم كلما رأوا منهم ميلا إلى مخالفة تلك المقاييس أو انحرافاً ، واتهموا المخالف باللحن ، وشاعت هذه الكلمة معبرة عن الأخطاء اللغوية وخاصة ما يتعلق منها بالإعراب. يحكى عن أبى بحر عبد الله بن إسحاق الحضرمى أنه سمع الفرزدق ينشد :

وعضّ زمان يا ابْنَ مَرْوَانَ لم يدعْ مِنَ المالِ إلا مُسْحِتاً أو مجلفُ[1]

فقال له : على أى شىء ترفع أو مجلف ؟ فقال : على ما يسوءك وينوءك . وساء الفرزدق كثرة تتبع أبى إسحاق له فى شعره ، ولم يطق عليه صبراً فهجاه بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له ابن أبى إسحاق : ولقد لحنت أيضاً فى قولك مولى مواليا : وكان ينبغى أن تقول : مولى موال[2].

تلك دراسات النحو . أما دراسات اللغة وألفاظها بفصيحها وغريبها فقد استقل بها جماعة اشتهروا باسم اللغويين . ويذكر على رأسهم أبو عمرو بن العلاء . وكان أعلم الناس بأمور العرب وبالغريب والعربية والشعر وأيام الناس[3] وكان إلى جانب هذا كله عالماً فى القرآن وعلومه ، كثير الجمع عن الأعراب ، غزير المحصول ، يروى أنه كان يملأ بيته إلى قريب السقف بما جمع . ومن هؤلاء النضر بن شميل ويلقب بالمازنى[4] . أقام بالبادية زمناً طويلا فأخذ عن فصحاء الأعراب . ومنهم الكسائى[5] وكان ينتقل فى البلدان وينتقل إلى

---

(١) والديوان : « مسحتاً أو مجرف » .

(٢) نزهة الألباء — ط ١٢٩ هـ / ٢٤ وكان أبو إسحاق هذا من علماء الموالى الذين يتشددون فى القياس ولا يسلمون بسهولة لقول العرب ... ويقال إنه كان أول من علل النحو . (نزهة — ٢٣) .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٣٢١ .

(٤) توفى عام ٢٠٤ هـ .

(٥) توفى عام ١٧٩ هـ .

بوادى الحجاز ، ونجد وتهامة ، فرجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ[١] .

والأصمعى — عبد الملك بن قريب — زعيم جماعة النقاد اللغويين ، وصاحب رأى فى ظاهرة التنقية والتدقيق فى اللغة ، قال الأصمعى : « كنت أغشى بيوت الأعراب أكتب عنهم كثيراً حتى ألفونى » .

واعتمد هؤلاء العلماء فى دراساتهم اللغوية ، وفى تحقيق الألفاظ على لغة البدو الفصحاء وذلك بالسماع أو بالرواية عن الثقاة من العلماء السابقين ، وكانوا يدونون ما يسمعون من الأعراب مباشرة كتابة[٢] .

وظهرت فى ذلك العصر مجموعات من الكتب تمثل هذا الدور الأول من مرحلة التدوين اللغوى . ولم يسد هذه المرحلة شىء من التنسيق أو التنظيم ، بل كانت تتسم بطابع الفردية ، وكان نتيجة هذا العمل الفردى المتفرق أن فات كثيراً منهم كثير من الكلمات لم تقع لهم فيما جمعوا ، وكان من نتائجه أن كثر الخلط . ذلك أنه قد يقع للغوى سماع كلمة من مخالطته لجماعة من العرب ، ثم يقع لآخر مرة أخرى من قرائن مغايرة مدلول يخالف المدلول السابق للكلمة نفسها مخالفة قريبة أو بعيدة[٣] .

وتبعت الموجة الأولى فى التأليف اللغوى موجة ثانية ، تحرى العلماء فيها وضع القواعد والأصول الدقيقة لتلافى الخلط ، والإحالة ، ولضبط النقل ، حتى يمكن للغويين مراعاتها فى النقل ، وليصبح الآخذ بأسبابها ثقة يصح الاعتماد عليه.

واشترطوا للنقل شروطاً فأوجبوا فى راوية اللغة أن يكون ثقة . قال ابن فارس : فليتحر آخذ اللغة الأمانة والصدق والثقة والعدالة . وقال ابن الأنبارى : يشترط

---

(١) تاريخ بغداد - ١١/٤١١ .

(٢) ضحى الإسلام — ١/٢١٨ .

(٣) فجر الإسلام — ٢/٣١٣

أن يكون ناقل اللغة عدلا رجلا كان أو امرأة ، حرّا كان أو عبداً . كما يشترط فى نقل الحديث . لأن بها معرفة تفسيره ، فاشترط فى نقلها ما اشترط فى نقله ، فإن كان ناقل اللغة فاسقاً لم يقبل نقله[١] .

واشترطوا كذلك مجاراة الألفاظ لألفاظ القرآن حتى يمكن اعتبارها فصيحة . قال ابن خالويه فى شرح الفصيح « قد أجمع الناس أن اللغة إذا وردت فى القرآن فهى أفصح مما فى غيرها ، لا خلاف فى ذلك »[٢] .

وكان الأصمعى دقيقاً فى هذه الناحية إذ كان لا يفتى إلا فيما أجمع عليه علماء اللغة ولا يجيز[٣] إلا الأفصح ، ولا يحتج باللغة أو الشعر على كتاب الله ، بل يحتج بلغة القرآن عليهما .

واستهلت مرحلة النقد اللغوى بالنظر والتأمل والمراجعة . ومن ثم أمكن التعرف إلى الخصائص والقواعد والحدود لضبط اللغة وقياسها ، وتنقية ما جمع منها مما شابه من أخلاط وفهم ما جاء من ألفاظها عن طريق الشرح ووضع المعاجم لتحديد المدلول . وقد تطورت هذه من معاجم جزئية فى أبواب معينة تدور كلماتها فى موضوعات متقاربة محدودة إلى معاجم جامعة شاملة .

وكانت هذه المرحلة ضرورية لاستقرار الدراسات اللغوية . وخطوة أولى لوضع منهج يسير عليه اللغويون ، حتى لا يخلطوا بين اللهجات الفصيحة وغيرها من الأعجمى والوحشى وغير الفصيح . يقول ابن خلدون : لما فسدت ملكة اللسان العربى فى الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها ، فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضعه عندهم ميلا من هجنة المتعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج إلى حفظ

(١) المزهر ٢/١٨٣ .
(٢) نفس المصدر ١٢٩ .
(٣) نفسه ٣١٣ .

الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللغة واللسان لذلك وأملوا فيه[١].

وهكذا كان القرآن دافعاً لكثير من العلماء إلى التبحر فى اللغة وتحمل المشاق فى سبيل جمعها وتخليصها. أكد ذلك ابن خلدون ، وسبق للفارابى أيضاً تأكيده فى خطبة ديوان الأدب[٢] إذ يقول : « القرآن وتنزيله فصل فيه مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم مما يأتون ويذرون ، ولاسبيل إلى علمه وإدراك معانيه إلا بالتبحر فى علم اللغة » .

ويرى ذلك الرأى من المحدثين صاحب ضحى الإسلام إذ يقول : « ووردت فى القرآن والحديث ألفاظ لغوية فضربوا أكباد الإبل إلى البادية ، يستفسرون عن لفظ ، أو يقفون على تعبير ، ودعاهم ذلك إلى حفظ الأشعار ، ففيها أحياناً ما يفسر لفظاً قرآنيًّا ، أو يساعد على فهم تعبير قرآنى . فأكثروا من رواية اللغة والأشعار لذلك ، ووفقوا فيها وتحروا الموضوع من الصحيح ، وما كان يبذل هذا المجهود لولا ما وراءه »[٣] .

ومن أهم الكتب التى ظهرت فى هذا العصر وتمثل مرحلة الجمع المنظم « كتاب العين » للخليل بن أحمد ، وهو يجمع المفردات اللغوية ويصنفها بالترتيب الصوتى لمخارج حروفها الأولى يبدؤها بحرف العين ، ويستشهد على الألفاظ بآيات القرآن[٤] . وقد اعتبر هذا الكتاب هامًّا فى ضبط اللغة مع بعض ما جاء به من الخلل ، والشك فى نسبته إلى الخليل[٥] .

وكثرت كتب اللغة بعده وتفرقت فى موضوعات مختلفة كل منها انفرد

(١) المقدمة ٥٠٠ .
(٢) وهو مخطوط بدار الكتب .
(٣) ضحى الإسلام ١ / ٣١٠ .
(٤) راجع المزهر ١ / ٥٤ .
(٥) راجع فى هذا أخبار النحويين للسيرافى ٣٨ ، ومقدمة مختصر العين (مصورة بدار الكتب)

بموضوع يجمع بين ضفتيه من الألفاظ والمترادفات فى معنى واحد ، أو معان متقاربة ما يمكن ويصح جمعه . من ذلك مثلا موضوع « اللبن واللبأ » وهو اسم لأكثر من كتاب لجماعة من العلماء فى عصر واحد أو عصور متقاربة لا تتعدى حدود القرنين الثالث والرابع . كل كتاب يجمع كل ما سمع مؤلفه أو ما وقع عليه عن طريق النقل أو الرواية مما قيل فى اللبن واللبأ من ألفاظ تتناول أطوار اللبن منذ حلبه ، والتطورات التى تطرأ عليه حتى يصبح حامضاً . وما جاء فى هذا كله من اللغات واللهجات المختلفة لقبائل العرب .

ويقرب منه ما كتب فى موضوع « النخل والكرم » و « الرحل والمنزل » و « النبت والشجر » و « الدارات »(١) . وغيرها .

ولكى نعطى فكرة عامة عن هذه الدراسات نستعرض كتاب « الدارات » للأصمعى(٢) يقول فى مقدمته : « دارات العرب المعروفة فى بلدانهم وأشعارهم سبع عشرة دارة . والدارة ما اتسع من الأرض وأحاطت به الجبال غلظ أو سهل ، يقال دار ودارة وأدؤر ودارات . فمن ذلك دارة وشجى . وأنشد :

ولستُ بناسٍ موقفاً إن وقفتُه ... بدارةِ وشْجى ما عمرتُ مسلما

ودارةُ جُلْجُل ، قال امرؤ القيس :

ألا رُبَّ يوم لَكَ مِنْهُنَّ صالح ... ولا سِيَّما يوم بدارةِ جلجل »

وهكذا نرى أن الأصمعى يذكر اسم الدارة ويعرفها ، ثم يأتى بشاهد من الشعر ورد ذكرها فيه .

وعلى هذا المثال تجرى الكتب الأخرى . تذكر كلمة ويؤتى بالشاهد عليها .

(١) مثل « كتاب الرحل والمنزل » لأبى عبيد القاسم بن سلام ، و « كتاب الرحل والمنزل » ، و « كتاب الحيات » ، و « كتاب الخيل » ، و « كتاب الإبل » ، و « كتاب الرحل » ، و « كتاب الزرع » ، و « كتاب السرج واللجام » لأبى عبيدة .

(٢) رواية أبى حاتم السجستانى نشره [illegible] لويس شيخو ضمن مجموعة [illegible] بيروت ١٩٠٨ .

وقد تفسر باختصار مع ذكر مشتقاتها أو مترادفاتها .

وهذه السلسلة واضحة الاتجاه . فهي تهدف إلى وضع ألفاظ معينة لمعان معينة متقاربة تحت موضوع واحد . ولعل هذا النوع من التصنيف - إلى جانب غايته في حصر اللغة - كان يهدف إلى خدمة المستعربين من الموالي والكتاب بوضع محصول لغوي لمجموعة من المعارف اللغوية للنبات والشجر والكرم والسماء والمطر والخيل والحيوان ... إلخ .

ومهد هذا العمل لقيام المعاجم في الطبقة التالية .

ومما يحسن التنبيه إليه هنا أن هذه الحركة اللغوية والتآليف كانت تدور حول مشاهد الطبيعة ومظاهرها [illegible] وكانت تدور حول حياة العرب وأحوالهم الاجتماعية .

وإلى جانب الاتجاه السابق برز اتجاه آخر يتعلق بقواعد اللغة وبنية الألفاظ . ويتمثل في مجموعة من الكتب تدور في موضوعات معينة كالجمع والتثنية و« المصادر » و« فعل وأفعل » و« ما تلحن فيه العامة » و« المذكر والمؤنث » و« اللغات » و« المقصور والممدود » و« الوقف والابتداء » ... إلخ .

وهي تتفق في المنهج وطريقة العرض مع السلسلة السابقة .

وهناك اتجاه ثالث في مؤلفات اللغة في ذلك العصر كان يتعلق [illegible] الأول [illegible] هذه السلسلة [illegible] الاتجاه الخاص بكتب القراءات والوقف والابتداء و« غريب القرآن » و« معاني القرآن » [illegible] القرآن » و« الجمع والتثنية في القرآن » ... ونجد [illegible] الآخرين .

أما كتب الغريب فقد اشتهر منها [illegible] و« غريب القرآن » لابن قتيبة . أما غريب أبو عبيدة فقد [illegible] فيبدؤه المؤلف بذكر أسماء الله [illegible] وأوصافها

واشتقاقها . وأتبع ذلك ألفاظاً أكثر تردادها فى الكتاب ، لم ير بعض السور أولى من بعض . ثم ابتدأ بتفسير غريب القرآن دون مشكله لأنه أفرد للمشكل كتاباً آخر[١] . يقول فى مقدمة الغريب : « وغرضنا الذى امتثلناه فى كتابنا هذا أن نختصر ونكمل ، وأن نوضح ونجمل ، وأن لا نستشهد على اللفظ المبتذل ، ولا نكثر الأدلة على الحرف المستعمل . . . إلى أن قال « وكتابنا هذا استنبط من كتب المفسرين ، ومن كتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا فى شىء منه بآرائنا غير معانيهم بعد اختيارنا فى الحرف أولى الأقاويل فى اللغة وأشبهها بقصة الآية ، ونبذ منكر التأويل ومنحول التفسير[٢]

ويستطرد فى الكتاب بهذا النظام فيشرح غريب ألفاظ القرآن شرحاً لغوياً على مثال قوله فى غريب فاتحة الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم — اختصار كأنه قال أبدأ باسم الله ، أو بدأت باسم الله . الحمد لله حمد الله الثناء عليه بصفاته الحسنى . وشكر الله الثناء عليه بنعمته وإحسانه تقول حمدت الرجل إذا أثنيت عليه بكرم وحسب شجاعة . وأشباه ذلك وشكرت له إذا أثنيت عليه بمعروف أولاكه . وقد يوضع الحمد موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد . رب العالمين . أى مالك العالمين . يقال هذا رب الدار ، ورب الضيعة ، ورب الغلام أى مالكه . قال الله سبحانه « ارجع إلى ربك » أى سيدك . ولا يقال لمخلوق هذا الرب معرفاً بالألف واللام كما يقال لله إنما يقال هذا رب كذا ، ورب كذا فيعرف بالإضافة لأن الله مالك كل شىء الرحمن الرحيم صفتان مبنيتان من الرحمة . قال أبو عبيدة وتقديرهما ندمان ونديم . ملك يوم الدين . يعنى يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه يوم الجزاء

(١) جمع ابن مطرف الكنانى [illegible] غريب [illegible] مشكله ، فى كتاب واحد أسماه القرطين ط الخانجى عام ١٣٥٥ هـ .

(٢) مقدمة القرطين [illegible]

والحساب ، ومنه يقال دنته لما صنع أى جازيته ، ويقال فى مثل : كما تدين تدان ، يريد كما تصنع يصنع ربك ، وكما تجازى تجازى[١] .

وهكذا يظهر من تناوله لسورة الفاتحة على النحو السابق أن الكتاب يتعرض لشرح الغريب فى القرآن بترتيب السور على مثال كتابى « مجاز القرآن » و« معانى القرآن » ، ولكنه يهتم بالألفاظ ويبحثها من ناحية الاشتقاق ، والبناء ، الصحيح مما يعد ذخيرة لغوية تضيف إلى التراث اللغوى جهداً جديداً من جهود ابن قتيبة .

البحوث اللغوية فى مدلول اللفظ :

كانت الاتجاهات اللغوية السابقة فى الدراسات اللغوية أصلا فى بحوث مدلول اللفظ لأن الكتب السابقة كانت تتعرض من قريب أو بعيد للبحث فى اللفظ وصلته بالمعنى . وكانت ترد فى بعض الكتب دراسات قصيرة فى الاشتقاق والبناء والأضداد والاختلاف فى اللفظ والمعنى وكان لكتب « غريب القرآن » و « مشكل القرآن » أكبر الأثر فى توجيه البحوث اللغوية فى مدلول اللفظ . وكان الحرص على لغة القرآن ودفع الطعن عنها وراء كل بحث من تلك البحوث .

واختلف العلماء فى فهم معانى الألفاظ المتشابهة ، ونشأت عن ذلك اضطرابات ومشكلات ضمتها كتب اللغة المختلفة ، وبلغت هذه الخلافات أشدها فى عصور الجمع الأولى ولم يكن المعنى اللفظى قد استقر بعد . ولم تكن الألفاظ خاضعة لقواعد أو قوانين بل كانت كلها شوارد مجتمعة من هنا وهناك يقصها التنسيق والتهذيب والإخضاع للقواعد ، كالقلب ، والحذف ، والإبدال فقد ترد لفظة واحدة عمل فيها القلب أو الحذف أو الإبدال فتغير بناؤها ، فيوردها أحد اللغويين وكأنها لغة جديدة أو لفظ جديد .

(١) كتب القرطبى ٣ ، ٤ .

ولا يبعد أن يقع لفظ شارد فى معنى ما لأحد العلماء ، ويقع مثله فى المعنى نفسه لعالم آخر . ولا يبعد أن يسمع لغوى لفظاً من أعرابى فى معنى ، ويسمعه آخر فى معنى مختلف وقد يقع التحريف عن طريق أغلاط اللسان ، أو تغاير اللهجات فى القبائل . وقد يجىء الاختلاف فى المداول عن طريق العلماء أنفسهم ولهذا مظاهره المختلفة :

١ — فهم اللفظ بذوق لغوى جاء عن طريق المران الطويل والممارسة الدائبة للغة . مثال ذلك اختلافهم فى معنى خنذيذ . قال أبو عبيدة . الخنذيذ من الأضداد : يقال خنذيذ للفحل وللخصى . واحتج بقول خفاف :

« وخناذيذ خِصيةً وفحُولا »

وقال أبو حاتم : لم يصب أبو عبيدة لأن الشاعر لم يذهب إلى أن الفحول من الخناذيذ ، وإنما مدح الشاعر الجنسين ، فكان الفحول خارجين عن الخناذيذ . قال : والخنذيذ الفائق من كل شىء[1] .

٢ — الاختلاف فيما قصد إليه المعنى مثل اختلافهم فى معنى قول الله عز وجل (وأسرُّوا النَّجْوى الَّذِيْن ظَلَمُوا) فمعنى أسروا هاهنا كتموا . وقال تبارك وتعالى فى غير هذا الموضع (وأَسَرُّوا النَّدَامةَ لَمَّا رأَوُا العَذَاب) فقال الفراء والمفسرون : كتم الرؤساء الندامة من السفلة الذين أضلوهم . وقال أبو عبيدة وقطرب : معناه أظهروا الندامة عند معاينة العذاب . واحتجا بقول الفرزدق :

ولما رأى الحجّاج جرّد سيْفَهُ   أسرّ الحروريُّ الذى كان أضمرا

معناه أظهر الحرورى[2] .

(١) الأضداد لابن الأنبارى ٤٩ .
(٢) نفس المصدر ٣٧ .

والتزم اللغويون فى بحوث المدلول مناهج مختلفة . ظهرت فيها محاولاتهم تتضمن كتباً بأسماء عدة ، ولكنها وإن اختلفت فى التسمية فغير مختلفة فى الهدف العام وهو المداول . وأهم تلك البحوث وأخطرها وألصقها بالدراسات القرآنية ، وأثرها فى اللغة بحوث الأضداد .

وتناولها اللغويون على اختلاف طبقاتهم بهذا الاسم فأفردوا لها كتب الأضداد كما فعل الأصمعى وأبو حاتم وابن السكيت ، وابن الأنبارى .

وقد يكون البحث فى المدلول جزءاً من البحث العام فى لغة القرآن وبيانه . ويكون البحث فيها مرتبطاً بها . فأبو عبيدة مثلا يطرق الموضوع أكثر من مرة فى « مجاز القرآن » ويتعرض للأضداد . والفراء كذلك وإن اختلف فى الرأى مع أبى عبيدة . وابن قتيبة يناقش المسألة فى المشكل فيفرد باباً للمقلوب . ويتعرض لها أكثر من مرة فى مناسبات أخرى مثلما فعل فى باب « مخالفة ظاهر الكلام معناه » وفى باب « المشكل الذى ادعى على القرآن به » وباب « اللفظ الواحد للمعانى المختلفة » .

ولكن تبرز غير هذه المحاولات جميعاً مجموعة كتب الأضداد فى سلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض . وقد تصدت لبحث مدلول اللفظ . واجتهد مؤلفوها فى بحث معنى اللفظ المفرد . وصلته بالسياق . ومدى اختلاف معناه باختلاف تركيبه فى الجملة . ثم مدى تبعيته للعبارة . وكان حافز العلماء فى الاجتهاد والبحث القرآن . ذلك لأن المفسرين . والعلماء الذين شغلوا بدراسة أساوبه قد اعترضتهم بعض العقبات حين اصطدموا بألفاظ قد يفهم تكرارها فى مناسبات مختلفة فى القرآن أنها متضاده أو مختلفة فى معانيها . وذلك بالقياس إلى الشاهد الشعرى . مما دعا بعض الطاعنين والشكاك إلى القول بالتناقض فى أسلوب القرآن .

ويعاب أن الخطأ نتج عندهم من القياس على الشاهد الشعرى . ولم يراعوا ما فى الشاهد من احتمالات مختلفة . كاحتمال الخطأ . والتصحيف . أو المناسبة

وتغيرها من شاهد إلى شاهد،والسياق ، ثم اللهجة أو اللغة فى قبائل العرب . وهذه مما تصدى له العلماء فى بحوث الأضداد وفصلوا القول فيه .

وقد هب أولئك يدفعون اتهامات الطاعنين ، ويقوضون من مزاعمهم . وبدأوا فعرضوا المشكل والأضداد فى اللغة على بساط البحث ، عرضاً لغوياً مناقشين مفندين فى سلسلة كتب متتابعة .

وسطر أبو حاتم فى مقدمة كتابه الدافع الأول لمحاولات العلماء دراسة الأضداد فى اللغة فقال « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب المقلوب لفظه فى كلام العرب والمزال عن جهته والأضداد ،حملنا على تأليفه أنا وجدنا من الأضداد فى كلامهم والمقلوب شيئاً كثيراً فأوضحنا ما حضر منه ، إذ كان يجىء فى القرآن الظن يقيناً وشكاً . والرجاء خوفاً وطمعاً . وهو مشهور فى كلام العرب .وضد الشىء خلافه وغيره . فأردنا أن لا يكون يرى من لا يعرف لغات العرب أن الله عز وجل حين قال : (وإنَّها لَكَبِيرةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعين . الَّذِين يظُنُّونَ)[1] يمدح الشاكين فى لقاء ربهم وإنما المعنى يستيقنون . وكذلك فى صفة من أوتى كتابه بيمينه من أهل الجنة (هَاؤُمُ اقْرَؤا كِتَابِيَهْ . إنِّى ظَنَنْتُ أنِّى مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ) ولو كان شاكاً لم يكن مؤمناً .

ومقدمة ابن الأنبارى لكتاب الأضداد فيها نفس المعنى السابق ، وهو « خدمة تفسير القرآن ومحاولة الدفاع عن ما وُجه إلى لغته وأسلوبه من التناقض والإحالة » . ويزيد ابن الأنبارى فى توضيحه فيقول « هذا كتاب ذكر الحروف التى توقعها العرب على المعانى المتضادة فيكون الحرف منها مؤدياً عن معنيين مختلفين ، ويظن أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب أن ذلك كان منهم نقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم ... وقال الله عز وجل - وهو أصدق القائلين - « الذين يَظُنُّونَ أنَّهُم مُلاقُوا اللهَ[2] » أراد الذين يتيقنون ذلك ، فلم يذهب وهم

(١) البقرة ٤٥/٤٦ .

(٢) البقرة ٢٤٩ .

عاقل إلى أن الله عز وجل يمدح قوماً بالشك فى لقائه ، وقال فى موضع آخر — حاكياً عن فرعون فى خطابه موسى : (إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا) وقال تعالى حاكياً عن يونس: (وذَا النون إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيهِ) أراد رجا ذلك ، ولا يقول مسلم أن يونس يوقن أن الله لا يقدر عليه . . »

مع هاتين المقدمتين نتبين بوضوح مدى أثر الحرص على ألفاظ القرآن ، وفهمها فهماً صحيحاً يتمشى مع العقيدة ، ومحاولة دفع كل ما يوجه للغة العربية والقرآن من طعن وتعارض فى بعث دراسات الأضداد ومدلول اللفظ .

١ — كتاب الأضداد للأصمعى :

وتبدأ سلسلة كتب الأضداد التى بين يدينا بكتاب الأصمعى ، ويمثل المرحلة الأولى لهذه الدراسات . ويمكن بعد استعراضه تبين منهجه ، ومنهج العلماء الذين تناولوا موضوع الأضداد .

فالكتاب من حيث موضوعه يتناول الألفاظ التى لها معان متضادة فى القرآن عالباً — فيوضحها ويشرح معانيها ، وملابساتها اللغوية ، مبينا الوجه الصحيح فيها . ولا يلتزم الأصمعى منهجاً مرسوماً فى هذا الكتاب ، ولا يحاول الخروج إلى نتائج فى معنى اللفظ ، أو يعلل ذلك التناقض والاختلاف . وكان يتحاشى — إذا تعرض للفظ قرآنى — أن يبت فيه برأى ، بل يورد ما جاء فيه مبيناً أصح تلك الأقوال ، تاركاً للقارئ التفضيل والترجيح .

ويقلل من الشاهد القرآنى ، ولا يشير فى مقدمته إلى غرضه من تأليف الكتاب ، وهو محاولة الرد على الطاعنين . ويجرى على المثال التالى :

« أقوى والمقوى الذى لا زاد معه ولا مال . يقال قد أقوت الدار و (متاعاً للمقوين) . وفى موضع آخر المقوى الكثير المال . يقال فلان أكثر من فلان مالا وأنه مقو . والمقوى الذى له دابة قوية وظهره قوى » .

ويقول «سجر ويقال المسجور المملوء ، والمسجور الفارغ . قال الله عز وجل (وإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) أى فرغ بعضها فى بعض . وحكى أبو عمرو سجر

السيل الفرات والنهر والمصنعة يسجرها سجراً إذا ملأها ، والبحر المسجور الملآن . قال النمر بن تولب وذكر وعلا :

إذا شاء طالعَ مسجُورَةً تَرى حَوْلَها النَّبعَ والسَّاسمَا[1]

من هذين الشاهدين نلاحظ إيراد الأصمعي للشاهد القرآني مع الألفاظ ، والحقيقة أنه يذكر الألفاظ التي في الآيات ثم يتبعها الآية - إذا لم يربدأ - أو إذا رأى أن المعنى واضح صريح لا لبس فيه ولا غموض .

وهذا شاهد على أن الأصمعي لم يتحرج كل التحرج من القول في القرآن . أو تفسير ما جاء من اللغة فيه على ما تروى الأخبار .

ولم يقتصر الأصمعي على ذكر الأضداد في كتابه ، بل ذكر كلمات اختلف في معانيها باختلاف مواضعها ، ومناسباتها ، مثل المولى المنعم ، والمولى المنعم عليه ، مع سبعة معان أخرى ليست متضادة مع المعنى الأول .

٢ - كتاب الأضداد لابن السكيت :

يجرى على مثال كتاب الأصمعي فيجمع كل ما جمع من ألفاظ مع تفسير الأصمعي نفسه أو قريب منه جداً لدرجة أن الناشر للكتابين شك في الأمر فقال « يتضح من مطالعة كتاب الأضداد لابن السكيت أنه تبع كتاب الأضداد للأصمعي إلا فيما ندر فيورد العبارات ذاتها ، بالترتيب نفسه ، ويرفع إلى الأصمعي ما يورد عنه قائلا « أبو سعيد » أو « الأصمعي » مكتفياً بذكر اسمه في بدء ما ينقله عنه . ومنه يمكن القول باعتبار كتاب الأضداد لابن السكيت رواية ثانية للأضداد للأصمعي »[2]

(١) الأضداد ص ١١ .
(٢) نفس المصدر ١٦٢ .

٣ – كتاب الأضداد لأبى حاتم السجستانى :

وهو الحلقة الثانية من كتب الأضداد . ويعتبر طوراً جديداً انتقل إليه التأليف فى هذا الموضوع ، ويعد السجستانى بحق أول من أرسى قواعد هذه الدراسة ، ووضع اللبنات الأولى فى بحوث مدلول اللفظ من هذه الزاوية الخاصة . ذلك وقد بحث فيه نظرية المعنى اللفظى فى الأضداد بحثاً جديداً أثار فيه رءوساً من المسائل والمشكلات اللغوية ، وحدد الخطوات الأولى للمنهج الذى ينبغى اتباعه .

وانتفع أبو حاتم بأستاذه الأصمعى ، ونظر فيما كتب . وروى عن أبى عبيدة . ثم حاول محاولة أخرى ، فلم يكتف بما جمع من الألفاظ ولكنه تعمق النظر والتأمل فيما جاء فى القرآن من الألفاظ التى يختلف مدلولها . وينقلب أحياناً وحاول أن يصطنع منهجاً لضبط معانى تلك الألفاظ . وحاول أن ينتقل من مرحلة النظرة الفردية لكل لفظ على حدة إلى التعميم ، وملاحظة معان ، وصفات مشتركة لمجموعة من الألفاظ . وانتهى إلى آراء طريفة تحاول أن تعلل تلك الظاهرة اللغوية التى شغلت العلماء . ومهدت لمن جاء بعده .

وأول ما يسترعى الانتباه فى كتابه – وكتب الأضداد بصفة عامة – أنها لا تبحث الألفاظ التى تأتى متضادة فى معانيها أحياناً وحسب . بل تبحث فوق ذلك الألفاظ التى تختلف معانيها باختلاف المناسبة والسياق وهو « المقلوب لفظه فى كلام العرب المزال عن جهته والأضداد » .

وغلب اسم الأضداد على هذه الكتب وهى فى حقيقتها بحوث فى مدلول اللفظ وتغيره من وقت لآخر تحت ظروف معينة وعوامل مختلفة .

يقول أبو حاتم « اجتمعت العرب على أن ند الشىء مثله وشبهه وعدله ، ولا أعلمهم اختلفوا فى ذلك .. قال لبيد :

أحمدُ اللهَ فلا نِدَّ لَهُ بين يديه الخيرُ ما شاء فعلْ

والجمع أنداد، قال الله تعالى : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) ، وكثير من العرب يجعلون الند أيضاً للجمع من النساء والرجال ، وللاثنين من الرجال والنساء كما يجعلون المثل والشبه والعدل والضد، قال الله تعالى : (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا) ولو قال مثلينا لكان جيداً فى الكلام ، وقال سبحانه : (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُم) . وقال عز اسمه فى موضع آخر : (ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم) ، ولو قال إنكم إذاً أمثالهم وثم لا يكونوا مثلكم لجاز الكلام . وقال الله تعالى : (وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) ولو قالوا فى الكلام أضداداً لكان جائزاً كما قال أنداداً . ويقال أيضاً الأشباه والأعدال ونحو ذلك . قال الشاعر :

أَتَيْماً تجعلُون إلىَّ نِدا وما تيمٌ لذى حسب نديدُ

تيم قبيلة وجماعة ، وأما حسان فقال :

أتهجوه ولست له بند فشرُّكما لخيرِكما الفداء

فأراد الواحد ، ويقال ند ونديد ، ونديده بالهاء ، كما يقال فى الحديث : « إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموه » ، أى كريم قوم . قال لبيد :

لكى لا يكون السندرى نديدتى وأشتم أقواماً عموماً عماعما »

وهو فى الأمثلة السابقة لم يقصر دراسته على استعمال اللفظ فى معنى الضد بل تناول مدلول اللفظ المفرد وانتقاله إلى الجمع والمثنى أو العكس .

وأول ما يبدأ القول يحدد معنى كلمة ضد وتقابلها المختلفة ، وينتهى من ذلك إلى أن الكلمة « ضدّ » لا تعنى إلا ضدّ الشىء ، أى خلافه ، ثم يقول « وعلى هذا جاءت فى القرآن » ، ويعرض الشواهد يستدل بها على صحة ما يقول .

يقول « زعم قوم أن بعض العرب يجعل الضد مثل الند ، ويقول هو

(١) الأضداد ٢٠ .

يضادنى فى ذلك أى يمائلنى ،ولا أعرف أنا ذلك ، فأما المعروف فى الضد فى كلام العرب فخلاف الشىء، كما يقال الإيمان ضد الكفر ، والعقل ضد الحمق ، وفى القرآن: (وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) أى أضدادًا لأن أول الآيتين (واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُم عِزًّا) ثم قال تعالى : (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ) أى تكون الآلهة (عَلَيْهِمْ ضِدًّا) أى عليهم عوناً أراد خلاف العز [١]

وأثر القرآن فى كتاب أبى حاتم واضح . فهو يورد اللفظ وينص على استعماله فى القرآن فيقول وفى القرآن كذا . . . وكذا . . . . ثم يأتى بالمعنى المختلف أو المتضاد إذا كان اللفظ مستعملا فى الضد . ولا تحريرله ولا تخريج فيما يراه . وينتهى من ذلك إلى شبيه الكلمة أو مثلها إذا كان لها شبيه أو مثيل . فعند ما يتكلم عن «ظن» ومعنيها المتضادين يأتى بالكلمة القريبة فى الاشتقاق فيتكلم عن «ضنين .وظنين» فيقول: (وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ [٢]) وبظنين فهما وجهان معروفان ، فالضنين البخيل . والظنين المتهم ،وهو من الظنة أى التهمة. ويتعرض بالنقد لأقوال السابقين من العلماء ومن تعرض منهم للأضداد قولا أو تأليفاً . يأخذ على أبى عبيدة قوله فى كلمة خاف : «كان أبو عبيدة يقول «خاف من الخوف ومن اليقين، وكان يقول (فَإِنْ خِفْتُم أَلَّا تَعْدِلوا) [٣] يريد أيقنتم ، ولا علم لى بهذا لأنه قرآن ، فانما نحكيه عن رب العالمين ، ولا ندرى لعله ليس كما يظن [٤] . ويكذبه ، ولا يأخذ بكلامه . فيقول فى كلمة « أسر» وقال أبو عبيدة أسررت الشىء أخفيته ، أو أظهرته أيضاً ، وكان يقول فى هذه الآية (وأسروا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ) أظهروها . ولا أعتد بقوله فى هذا والله أعلم

(١) ص ١٩ ٨٤ الأضداد لأبى حاتم ٧٥ .
(٢) ص ٨١ ٢٤ نفس المصدر ٧٨ .
(٣) ص ٤ ٣ .
(٤) ص ٨٨ .

وقد استشهدوا على كلمة أسر بمعنى أخفى بقول الفرزدق :

فلما رأى الحجّاجَ جرّدَ سيفَه أسرَّ الحروريُّ الذى كان اضمرا

ولا يرضى أبو حاتم بهذا الاستشهاد على آيات القرآن ، ولا يطمئن إليه ، فيقول فى تقديمه الشاهد «وقد زعموا أن الفرزدق قال » ؛ ثم يقول ولا : أعتد أيضاً بقول الفرزدق فى القرآن ، ولا أدرى لعله قال الذى كان أظهرا ، أى كتم ما كان عليه ، والفرزدق كثير التخليط فى شعره ، وليس فى شعر نظيريه جرير والأخطل شىء من ذلك فلا أثق به فى القرآن » .

فانظر إلى أبى حاتم كيف أثار الشبهات من وجهات متعددة فى الشاهد الذى استشهد به على لفظ « أسر » فى الآية ، والتى ادّعى أنها من الأضداد . ووضع فى المثل السابق أصولا لقياس معنى اللفظة وحدد الاستشهاد على آيات القرآن ، فلم يقبل أولا أن يطلق القول بالأضداد فى لفظ قرآنى كما فعل أبو عبيدة قياساً على الشاهد الشعرى ، كما رأى أن الذى قاد أبا عبيدة وأمثاله إلى ذلك الخطأ تماديهم فى الاعتماد على الشاهد الشعرى دون تمحيص أو تدقيق ، ثم الاستشهاد به على القرآن ، لا الاحتجاج بالقرآن على الشاهد .

وهو يرفع أسلوب القرآن ولغته عن مواطن الشبهات ، فيحكمهما فى اللغة والشعر . ذلك أن القرآن لم يخضع لما خضعا له من تغيير قد يدفع بهما إلى مواطن الشك كالتصحيف ، والغلط فى الرواية ، وخلط الشاعر نفسه فيما يقول .

ويظهر أن أبا حاتم كان ذا رأى فى الأضداد فى القرآن يختلف عن آراء سابقيه ، منتفعاً بتحرج أستاذه الأصمعى وتدقيقه فى كل ما يتصل بالقرآن ولغاته وتفسيره . ويتلخص هذا الرأى فى :

١ أنه لا يرى التوسع فى نظرية الأضداد فى اللغة وخاصة فى لفظ القرآن . لا يرى التسليم بما قال المفسرون واللغويون من قبل ، بل ينقد آراءهم ويفندها مخطئاً كثيراً منها .

٢ - الاقتصار فى الألفاظ الأضداد على ما جاء منها مما لا يحتمل الشك ويؤيده السياق والشواهد الصحيحة .

٣ - إرجاع باقى ما جاء منها إلى أصولها ، من تصحيف ، وتغاير فى اللهجات أو مجرد أخطاء وقع فيها الشعراء نتيجة الاختلاط بالمولدين ، أو أخطاء فى الشعر نفسه نتيجة تداول ألسنة الرواة له .

ويهمنا أن نرجع إلى أصل هذا الرأى — القول بعدم التوسع فى الأضداد — فى القرآن خاصة ، وهو واضح فى كتابه . ذلك أن المتوسع فيها لا يسلم من العثرات ، ولا ينبغى لمفسر القرآن التمادى وراءها . يقول : « وكل شىء من هذا الباب فى القرآن فتفسيره يتقى ، وما لم يكن فى القرآن فهو أيسر خطباً[١] » .

٤ - إرجاع بعض ما جاء فى الأضداد إلى حالات خاصة ملابسة للفظ ، كالتفاؤل ، أو التشاؤم قال فى الناهل : الناهل العطشان ، والناهل الريان . قال الأصمعى الناهل الشارب يقال أنهلته سقيته الشربة الأولى ، وعللته سقيته مرتين أو أكثر ، وإنما قيل للعطشان ناهل على التفاؤل كما يقال للمهلكة مفازة على التفاؤل . ويقال للعطشان ريان . وللملدوغ سليم أى سيسلم ونحو ذلك لأن معنى فاز نجا . فالمفازة المنجاة ، كما قال الله تعالى : (فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ)[٢] أى بمنجاة إن شاء الله » .

٥ — الاكتفاء فى بعضها بذكر ما جاء فى تفسير العلماء مع الوقوف بين الآراء المتعارضة موقفاً وسطاً يقول « قال بعضهم فى المسجور الفارغ ، بلغنى ذلك ولا أدرى ما الصواب؟!! ولا أقول فى (الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) شيئاً ولا (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) لأنه قرآن فأنا أتقى به . وقالت جارية بالحجاز إن حوضكم لمسجور ولم تكن فيه قطرة . قال أبو حاتم : يمكن أن يكون هذا على التفاؤل كما يقال للعطشان ريان وللملدوغ سليم ، وقال ذو الرمة فى المسجور — وهو بمعنى المملوء :

(١) الأضداد ٩٨

(٢) س ٣ — ١٨٥

صففنَ الخدودَ والنفوسُ نواشزٌ   على ظهرِ مسْجُورٍ صَخُوبِ الضَّفَادعِ [١]

فقد أورد القولين جميعاً ولم يقطع بشيء، وإن كان من ظاهر كلامه أميل إلى القول بأن المسجور بمعنى المملوء. وأورد لغة الحجاز فيه، وقال إنها على التفاؤل قلب المعنى إلى الضد، واللغتان صحيحتان.

ومما يتعلق بالاختلاف فى معنى اللفظ، وليس من الأضداد –فى كتابه– مجيء الفعل الماضى الثلاثى على وزن فعل فى معنى المضارع، والمستقبل، والعكس[٢]، يقول «اتسعت العرب فجعلوا فعل فى مواضع لما لم ينقطع بعد. وجعلوا يفعل وأخواتها لما قد كان. فقال الله تعالى: (كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى المهْدِ صَبِيًّا) [٣] أى من هو فى المهد، وقوله تعالى: (ونَادَى أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ) [٤] أى ينادون فى الآخرة. وقال الحُطَيْئَةُ، وجعل شهد فى معنى يشهد:

شَهِدَ الحُطَيْئَةُ يوم يلقَى ربَّه   أنَّ الوليدَ أحق بالعُذْرِ

والاختلاف فى الدلالة الزمنية للفعل فى اللغة العربية مجال بحث وجدل فى القديم والحديث وقد دعا هذا الاختلاف، وعدم اختصاص كل صيغة فى الفعل بزمن بعض الباحثين المحدثين[٥] إلى الزعم بعدم مجاراة الفعل فى العربية للزمن. فالماضى غير مختص بالزمن الماضى، والمضارع غير مختص بالحال أو الاستقبال.. إلخ، وحاول أن يرجع بهذا إلى خاصية عامة فى اللغات السامية كما جعله وجهاً للخلاف بينها وبين اللغات (الإندو أوروبية).

٤ – كتاب الأضداد لابن الأنبارى:

وهو المرحلة الثالثة من كتب الأضداد. وإن لم يكن المرحلة التالية لكتاب

(١) الأضداد ١٢٧.

(٢) الأضداد ١٣١.

(٣) س ١٩ – ٣٠.

(٤) س ٧ – ٤٢.

(٥) الأستاذ إبراهيم أنيس فى كتاب من أسرار اللغة.

أبى حاتم فى هذه البحوث، لأن ابن قتيبة تعرض لها فى مشكل القرآن وتأثر بدراسة أستاذه أبى حاتم فى باب المقلوب، ونقل عنه كثيراً.

وجاء ابن الأنبارى فألف كتابه الجديد متأثراً بمحاولات سابقيه الأصمعى وأبى حاتم وابن قتيبة، ويحاول هو أن يجمع بينها ليُكمل بعضها بعضاً، ثم يضيف من رأيه إليها، وينظر نظرة أكثر شمولاً، ونضجاً. ولندعه يرسم لنا منهجه فى مقدمة الكتاب، فيقول.

« هذا كتاب ذكر الحروف التى تُوقعها العرب على المعانى المتضادة، فيكون الحرف منها مؤدياً عن معنيين مختلفين، ويظن أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب أن ذلك كان منهم نقصان حكمتهم، وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس فى محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم، فيسألون عن ذلك ويحتجون بأن الاسم منبىء عن المعنى الذى تحته، ودال عليه وموضح تأويله، فإذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان لم يعرف المخاطب أيهما أراد المخاطِب، وبطل بذلك معنى تعليق الاسم على المسمى. فأجيبوا عن هذا الذى ظنوه وسألوا عنه بضروب من الأجوبة. أحدهن - أن كلام العرب يصحح بعضه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظ على المعنيين المتضادين لأنه يتقدمه ويأتى بعده ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد به فى حال المتكلم والإخبار إلا معنى واحد، فمن ذلك قول الشاعر:

كل شىء ما خلا الموت جلل　　　والفتى يسعى ويلهيه الأمَل

فدل ما تقدم قبل جلل وتأخر بعده أن معناه كل شىء ما خلا الموت يسير، ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن جلل ها هنا بمعنى عظيم. وقال الآخر:

ياخولُ ياخولُ لايطمحْ بكَ الأملُ　　　فقد يكذِّبُ ظنَّ الآملِ الأجَلُ

(١) [illegible]

ياخولُ كيفَ يذوقُ الخفضَ معترفٌ بالموتِ والموتُ فيما بعده جَلَلُ

فدل ما مضى من الكلام على أن جللا معناه يسير ، قال الآخر[١] :

فلئِنْ عفوتُ لأعفُونْ جَللاً ولئن سطوتُ لأوهننْ عَظْمى

قومى هم قَتَلُوا أُمَيْم أخى فإذا رميتُ يُصيبنى سَهْمى

فدل الكلام على أنه أراد فلئن عفوت لأعفون عفواً عظيما ، لأن الإنسان لا يفخر بصفحه عن ذنب حقير يسير ، فلما كان اللبس فى هذين المعنيين زائلا عن جميع السامعين لم يتكرر وقوع الكلمة فى كلامين مختلفى اللفظين . وقال الله ـ وهو أصدق القائلين : (الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللهَ) أراد الذين يتيقنون ذلك فلم يذهب وهم عاقل إلى أن الله عز وجل يمدح قوماً بالشك فى لقائه . وقال فى موضع آخر حاكياً عن يونس : (وذا النُّونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فظَنَّ أنْ لَنْ نقدِرَ عَلَيْه) أراد رجا ذلك . ولا يقول مسلم أن يونس أيقن أن الله لا يقدر عليه[٢] .

ويجرى حروف الأضداد مجرى الحروف التى تقع على المعانى وإن لم تكن متضادة فلا يعرف المعنى المقصود منها إلا بما يتقدم الحرف ويتأخر بعده بما يوضح تأويله كقولك حمل لولد الضأن من الشاه ، وحمل اسم رجل ، لا يعرف أحد المعنيين . . . والأمة تباع الأنبياء والأمة الجماعة . والأمة الصالح الذى يؤتم به . والأمة الدين . والأمة المنفرد بالدين . والأمة الحين من الزمان . والأمة الأم . والأمة القامة وجمعها أمم . قال الأعشى :

وإن معاوية الأكرمين حسان الوجوه طوال الأمم

وفى ألفاظ كثيرة يطول إحصاؤها وتعديدها يصحبها العرب فى الكلام ما يدل

(١) هو [illegible] أولا .

(٢) [illegible] ٧٨ [illegible] ([illegible]) .

على المعنى المخصوص منها ، وهذا الضرب من الألفاظ هو القليل الظريف من كلام العرب » .

حدد ابن الأنبارى لنفسه طريقاً فى بحوث مدلول اللفظ بعد اطلاعه على آراء السابقين يقول : وقد جمع قوم من أهل اللغة الحروف المتضادة ، وصنفوا فى خصائصها كتباً نظرت فيها فوجدت كل واحد منهم أتى من الحروف بجزء وأسقط منها جزءاً . وأكثرهم أمسك عن الاعتلال لها فرأيت أن أجمعها فى كتابنا هذا على حسب معرفتى ومبلغ علمى ليستغنى كاتبه والناظر فيه عن الكتب القديمة المؤلفة فى مثل معناه إذ شمل على جميع ما فيها ، ولم تعدم منه زيادة الفوائد وحسن البيان ، واستيفاء الاحتجاج ، واستقصاء الشواهد [١] .

فكلامه هنا يثبت أنه يأخذ كلام القدماء فى الأضداد لا جمعاً كما فعل بعضهم أو نقلا ، بل دارساً ومعللا ، ثم أشار إلى مسألة هامة ، وهى استقصاء الشواهد وتصنيفها ، ومحاولة الخروج من هذا الإحصاء إلى ظاهرة عامة .

وأشار إلى أهمية الأضداد فى الكلام عند ما قسم اللفظ من حيث المدلول إلى أقسام ثلاثة :

١ — ألفاظ لا تعنى إذا وردت فى الكلام إلا معنى واحداً لا يتغير بتغير السياق ، كالرجل والمرأة ، والجمل ، والناقة ، واليوم ، والليلة ، وقام وقعد ، وتكلم وسكت ، وهذا هو الكثير الذى لا يحاط به [٢] .

٢ ألفاظ لايفهم معناها إلا بالسياق ، ولا يمكن أن تختلط فى المدلول ، مثل لفظ حمل بمعنى ولد الضأن ، وحمل بمعنى اسم رجل .

٣ ألفاظ يقع اللفظان منها أو أكثر على المعنى الواحد كقولك البر والحنطة والعير والحمار والذئب والسيد ، وجلس وقعد .

٤ ألفاظ يختلف معناها باختلاف السياق ، وهذا القسم يضم الأضداد .

(١) ص ١١ .
(٢) ص ٠ .

وهو القسم الهام فى هذا البحث لأنه « القليل الظريف من كلام العرب » .

والقسمان الأول والثانى لا يستغرقان من الكتاب كثيراً أما القسم الثالث فيخصه بالنظر قائلا إن الترادف فى هذه الألفاظ ليس مجرد كثرة عددية وتكرار لا فائدة وراءه، ولكن هناك علة لغوية كامنة وراء تعداد لفظين فى معنى واحد إذ أن كلّ لفظ منها يختلف عن الآخر فى المعنى اختلافاً ما وقد يكون الفرق دقيقاً لا يتنبه له إلا العارف بلغة العرب . وينقل عن أبى العباس ثعلب عن ابن الأعرابى قوله : كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ،فى كل منهما معنى ليس لصاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به ، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله[1] .

ويستطرد ابن الأنبارى فيرى أن العرب أطلقت الأسماء والألفاظ لعلل ومدلولات خاصة . منها ما وصل إلينا معرفته، ومنها ما نجهله « الأسماء كلها لعلة خصت العرب منها ما خصت من العلل ، منها ما نعمله ومنها ما نجهله » . وقال أبو بكر : يذهب ابن الأعرابى إلى أن مكة سميت مكة لجذب الناس إليها والبصرة سميت البصرة للحجارة البيض الرخوة التى بها[2] .

ومن هنا يدلف إلى أصل الاشتقاق فى اللغة ، وهو موضوع كثر تناوله ، وألف فيه ابن دريد وابن فارس وابن جنى .

وينتقل من الاشتقاق إلى الترادف - وقد سبقت الإشارة إلى رأيه فيه . ثم إلى الكلام عن الاختلاف فى مدلول اللفظ ، والأضداد .

والتقسيم السابق فى مراحله الأربع تدرج طبيعى فى مدلول اللفظ . إذ يبدؤها بالألفاظ التى لا تعدد لمدلولها . ثم المعنى الذى تتعدد ألفاظه ، ثم

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

الألفاظ أو الأسماء المشتقة من أصل واحد ، ثم المدلول المتعدد للفظ الواحد . وحاول أن يوجد صلات وروابط تربط هذه جميعاً فى نظرية واحدة . وحاول أن يجمع بين نظرية الاشتقاق ومراعاة السياق، ثم يدمج بينهما فى شىء كثير من الحذق إذ يقول ناقلا عن بعضهم : «إذا وقع الحرف إلى معنيين متضادين ، فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع . فمن ذلك الصريم ، يقال لليل صريم ، وللنهار صريم لأن الليل ينصرم من النهار . فأصل المعنيين من معنى واحد وهو القطع . وكذلك الصارخ المستغيث والصارخ المغيث . سميا بذلك لأن المغيث يصرخ بالإغاثة والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فأصلهما من باب واحد »[1] .

ومن الطبيعى أن يتعرض ابن الأنبارى لآراء غيره من العلماء السابقين فى الأضداد ، وينقدها لجمودها ووقوفها عند حدود التسليم بالانقلاب فى المعنى أو الوقوف دون إبداء الرأى كما فعل أبو حاتم أحياناً . من ذلك قولهم فى كلمة رجاء[2] ومنه قول كعب بن زهير :

أَرجو وآملُ أنْ تَدْنُو مَودَّتُها   وما أَخالُ لدَيْنَا منكَ تَنْويلُ

فالرجاء هنا معناه الأمل . وقد يأتى بمعنى العلم . مثل قوله تعالى : (فَمَنْ كان يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً) . هذا كما قال العلماء من قبل . أما ابن الأنبارى فلا يقبل هذا القول بسهولة بل يرى أنه غير صحيح . والصحيح عنده هو أن الرجاء لا يخرج أبداً عن معنى الشك ، ثم يورد شاهداً من الشعر يوضح وجهة نظره ، ويرى أن الآية التى احتجوا بها لا حجة لهم فيها لأن معناها فمن كان يرجو لقاء ثواب ربه . أى يطمع فى ذلك ولا يتيقنه ، ويرفض رأى أبى حاتم فى الآية الذى يقول بأن الرجاء هنا بمعنى الخوف . ويرى أنه قد أخطأ لأن العرب

(١) يذكر ابن قتيبة هذا الكلام فى المشكل راجع ص ١٣٢ ... بعدها من هذا البحث .
(٢) الأضداد لابن الأنبارى ٨ .

لا تذهب بالرجاء مذهب الخوف إلا مع حروف الجحد . ويستطرد فى تفنيد آرائهم فيعرض لابن قتيبة ويخطئه، ومن الظاهر أن ابن الأنبارى ينقد كتاب الأضداد لأبى حاتم ، لأنه يشير إلى ما يفهم ذلك فى مقدمة الكتاب ، وفى كثير من مواضعه . ولم يذكر عند تعرضه لابن قتيبة الكتاب الذى يعنيه وإن كنا نغلب الظن بأنه « كتاب المشكل » وما ورد فيه من أبواب المقلوب خاصة .

وأكثر دراسة ابن الأنبارى هنا منصبة على الألفاظ التى جاءت فى القرآن واعتبرها السابقون من الأضداد وأخطأوا فيها التأويل ، ويمكن أن يقال إنه حاول أن يهدم نظرية الأضداد السابقة – كما حاول ابن قتيبة فى المشكل – ولكن بتوسع . ويجتهد فيما وقف العلماء حياله صامتين من آيات القرآن ، فيحاول أن ينفذ من الحيز الضيق المضروب حول اللفظ القرآنى . ويحاول أن يوفق بين اللفظ والسياق دون التحامل على الآية أو على اللفظ ، ويرفض القول بالقلب، والتناقض ، والتضاد دون مبرر ، ودون إعمال الفكر .

ويحاول أن يجد تعديلا بعيداً عن ذلك كله يتفق ورأيه فيرى أن :

اختلاف اللهجات بين القبائل قد يؤدى إلى الاختلاف فى مدلول اللفظ . يقول « وقال آخرون إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربى أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ولكن أحد المعنيين لحى من العرب والآخر لحى غيره ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء، وهؤلاء عن هؤلاء . قالوا فالجون الأبيض فى لغة حى من العرب، والجون الأسود فى لغة حى آخر ثم أخذ أحد الفريقين عن الآخر » .

« والسدفة حرف من الأضداد فبنو تميم يذهبون إلى أنها الظلمة . وقيس يذهبون إلى أنها الضوء . قال الأصمعى : يقال أسدف أى تنح عن الضوء ، وقال غيره أهل مكة يقولون لرجل الواقف على البيت أسدف يا رجل أى تنح عن الضوء حتى [illegible] لنا . قال ابن مقبل :

وليلة قد جعلتُ الصبح موعدها بصُدْرة العَنْس حتى تعرفَ السَّدَفا

العنس الناقة ، ومعنى البيت إنى كلفت هذه الناقة السير إلى أن يبدو الضوء وتراه . قال الآخر :

قد أسدفَ الضوءُ وصاح الحنزاب [1]

٢ — التفاؤل والتشاؤم وسبق القول فيه عند أبى حاتم ، ويأخذ به أبو بكر الأنبارى وقد سبق القول كذلك فيه عند أبى قتيبة فى المشكل .

٣ — النسبية فى المعنى حسب السياق ، وهو ما يسميه ابن قتيبة التشبيه. يقول «فوق — حرف من الأضداد يكون بمعنى أعظم . . . ويكون فوق بمعنى دون ، كقولك : إن فلاناً لقصير وفوق القصير وإنه لقليل وفوق القليل ، وإنه لأحمق وفوق الأحمق ، أى هو دون المذموم باستحقاقه الزيادة من الذم ، ومن هذا المعنى قول الله عز وجل : (إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) يقال معنى قوله فما فوقها فما دونها ، ويقال معناه فما هو أعظم منها [2] .

ولم يقتصر كتاب الأضداد على اختلاف معنى اللفظ من الناحية اللغوية حسب الأقسام السابقة بل يتعداها إلى الاختلاف المعنوى للصيغة الإسمية ، مثلا ينقلب معنى الفاعل إلى المفعول أو العكس ، ويحدد مواضع القلب فى هاتين الصيغتين لأمن اللبس فيقول . « قال الراعى :

ولا تَهَيَّبُنِى المَــوماةُ أَرْكَبُها إذا تجَاوَبت الأصداءُ بالسَّحَرِ

قال أبو بكر : هذا عندى مما يقلب لأن اللبس يؤمن فى مثله ، فيقال تهيبنى الطريق لأنه معلوم أن الطريق لا يتهيب أحداً ، فإذا جاء ما يمكن اللبس فيه لم يكن الفاعل بتأويل المفعول ، والمفعول بتأويل الفاعل ، ألا ترى أنه لا

(١) ص ٩٧ : الحنزاب : الديك .

(٢) ص ٢١٧ .

يسوغ لقائل أن يقول ضربنى عبدالله وهو يريد ضربت عبد الله لأن فى هذا أعظم اللبس [١].

ويتعرض فى الكتاب لاختلاف معنى اللفظ المفرد إلى معنى الاثنين، ثم من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب. وقد ينتقل اسم الشىء إلى الشىء من سببه، يقول: «من الحروف أيضاً الظعينة المرأة فى الهودج. والظعينة الهودج، وقد يقال للمرأة وهى فى بيتها ظعينة والأصل فى ذاك. قال ابن السكيت: يقال بعيرٌ ظَعُونٌ إذا كان يحمل الظَّعائِنَ. قال زهير:

تبَصَّرْ خَلِيلِى هل تَرى من ظعائن ... تَحَمَّلْنَ بالعَلْياء من فوقِ جُرْثُم [٢]

ويتكلم عن أسلوب الاستفهام وتغيره عند ما يعرض لأداة الاستفهام هل [٣] فى القرآن ويتكلم كذلك فى بعض فنون القول الأخرى كالتشبيه. يقول: «والسجود فى غير هذا الخشوع والخضوع والتذلل كقوله جل اسمه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمواتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ) على جهة الخشوع والتذلل، ومن هذا قوله عز ذكره: (وإِنْ مِنْ شَىْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) معناه أن أثر صنعة الله عز وجل موجودة فى الأشياء كلها حيوانها ونباتها مما لم تكن به آلة النطق والتسبيح، وصف بذلك على جهة التشبيه بمن ينطق ويسبح لدلالته على خالقه وبارئه. قال الشاعر:

ساجدُ المِنْخَرِ ما يرفَعُه ... خاشعُ الطَّرْفِ أصم المستَمَع

وقال الطرماح أيضاً:

وخرق به البوم يرثى الصَّدا ... كما رثت الفاجعَ النائحهْ

فعبر عن الصدى بالمرثية عن جهة التشبيه» [٤].

(١) الأضداد ٨٤.

(٢) ص ١٤١.

(٣) ص ١٦٥

(٤) ص ٢٥٦ ، ٢٥٩.

وقال عمرو بن أحمر :

وعرفتُ من شُرُفات مسجدِها حجرَيْنِ طالَ عليهما الدّهرُ
بكيا الخلاء فقلْتُ إذ بَكَيا ما بعدَ مثلِ بُكَاكُما صبرُ

فوصف بهذه الأفاعيل من لا يفعلها فعل حقيقة إنما جوازها على المجاز والاتساع . وقد قال الله عز وجل : (والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) » .

وهذا الكلام دليل آخر على قراءة ابن الأنبارى لمشكل ابن قتيبة ، ولعلنا نذكر ما قال فى هذا الموضوع حين تعرض لمجاز القول ، وللآيات التى أوردها ابن الأنبارى فى كلامه السابق عن استعمال القول ومرادفاته مما يفيد إضافة صفة العاقل لغير العاقل مخالفاً بذلك رأى ابن قتيبة .

وينتهى كتاب الأضداد لأبى بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى . وبه تنتهى هذه الحلقة من الدراسات المتعلقة بالمدلول فى كتب الأضداد فى القرن الثالث .

٥ ـ الاختلاف فى اللفظ وكتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد » لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد .

الاختلاف فى اللفظ اتجاه آخر قريب الصلة جداً بالأضداد فى دراسات مدلول اللفظ فى القرن الثالث . وقد كان الاختلاف فى فهم غريب القرآن وتعارض الآراء فيه دافعاً إلى دراسة ظاهرة الاختلاف فى المدلول كما كانت دافعاً إلى دراسه ظاهرة الأضداد .

ألف فى اختلاف اللفظ كثير من علماء القرن الثانى والثالث . ومن أول من وصلتنا كتبه أبو العميثل الأعرابى وكتابه المأثور منه[١] . يتعرض للمشكلة على مثال كتب اللغة الأولى فهو مجرد حصر الألفاظ التى قد يتعدد مدلولها دون التزام منه لترتيب ما فى سوق الكلمات وبدون تعليل أو محاولة لإيجاد أية صلة بين

(١) نشره فريتز كرنكو وطبع بلندن سنة ١٩٢٥ م .

المعانى المختلفة على نحو ما يتبع إذ يقول :

« القبل — على سبعة أوجه ، القبل فى العين ، والقبل النشز من الأرض يستقبلك تقول : رأيت شخصاً بذلك القبل ، والقبل أن ترى الهلال قبلا فكان صغيراً . والقبل أن يتكلم الرجل بكلام لم يكن استعد له ، يقال تكلم فلان قبلا . والقبل أن يورد الرجل إبله الماء ثم يستقى ويصب عليها فيقال سقاها قبلا . والقبل شىء شبيه بالصرف يعلق فى أعناق الصبيان والقبل طى البئر فى أعلاها » .

وتخصص علماء آخرون فى دراسة الاختلاف فى اللفظ فى القرآن . ومن بين من تعرضوا له ووصلنا كتابه محمد بن يزيد المبرد، ولعله قد سُبق فيه[1] .

وكتاب المبرد صغير يقع فى تسع وثلاثين صفحة من القطع الصغير يبدؤه بقوله « هذه حروف ألفناها من كتاب الله عز وجل متفقة الألفاظ مختلفة المعانى متقاربة فى القول ، مختلفة فى الخبر على ما يوجد فى كلام العرب . لأن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين . واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين .

١ — أما اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين فنحو قولك .

ذهب وجاء . وقام وقعد . ويد ورجل وفرس .

٢ — واختلاف اللفظين والمعنى واحد فقولك ظننت وحسبت . وقعدت وجلست ، وذراع وساعد وأنف ومرسن .

٣ — واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين نحو وجدت شيئاً إذا أردت وجدان الضالة . ووجدت على الرجل من الموجدة ، ووجدت زيداً كريماً علمت . وكذلك ضربت زيداً . وضربت مثلا . وضربت فى الأرض إذا بعدت . ومن ذلك عين للتى يبصر بها ، وتقول هذا عين الشىء أى حقيقته . والعين المال

(١) [illegible] (توفى ٢٤٦ هـ) [illegible] ([illegible] ١١٨) .

الحاضر . والعين عين الميزان ، والعين سحابة تأتى من قبل القبلة وعين الماء .
وقولهم أمر جلل . كقوله :

* كل شيء ما خَلا اللهَ جلَلُ *

أى صغير . وقال لبيد :

وأرى أرْبَدَ قدْ فارقَنى ومِن الرُّزْء كثيرٌ وجَلَلُ

ويكون للتعظيم كقول جميل :

رسمُ دارٍ وقفتُ فى طَلَلِهْ كدتُ أقْضى الحياة من جلَلِهْ

أى من عظمه فى عينى .

ومن ذلك الجون الأسود ، وهو الأكثر . قال الراجز :

* وغلَّست والليلُ جونٌ حالك *

وقال عمرو بن شاس الأسدى :

وإن عراراً إن يكن غير واضح فإنى أحب الجون ذا المنكب العمم

والجون الأبيض كقول الراجز :

غير يا بنت الجنيد لونى كرُّ الليالى واختلافُ الجون

ويروى الحليس قال : حدثنى التوزى عن الأصمعى قال : عرضت على الحجاج دروع فقال : نحوها فإن الشمس جونة . ومن ذلك المقوى للقوى والضعيف . قال الله تعالى : (وَمتاعاً للمُقْوِينَ) (١) أى الضعفاء . تقول العرب : أكثر من

(١) س ٥٦ - ٧٤ .

فلان فإنه مقو أى ذو إبل قوية ؛ ومن ذلك الرجاء يكون فى معنى الخوف . قال أبو ذؤيب :

إذا لسعَتْهُ النحلُ لم يرجُ لسْعَها وخالَفها فى بيتٍ نُوب عَوافِلُ

وقال الأنصارى :

لعمرك ما أدرى إذا مت مؤمناً على أى جنب كان لله مصرعى

وقال المفسرون فى قوله تعالى : (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) أى لا تخافون عظمة الله . وكل من آثر أن يقول ما يحتمل معنيين فواجب عليه أن يضع على ما يقصد له دليلا لأن الكلام وضع للفائدة والبيان » .

وضع المبرد فى مقدمته المسألة وعرض الحل فى ختامها وهو وجوب التماس المعنى من السياق ، ثم دلف إلى القرآن يستعرض ما جاء منه مختلفاً فى المعنى فيؤوله بما يرى .

١ - يقول « فما اتفق لفظه واختلف معناه قوله تعالى : (.. إلاَّ أَمَانِىَّ وإنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ) هذا لمن شك . ثم قال : (والَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ) فهذا يقين لأنهم لو لم يكونوا مستيقنين لكانوا ضُلالا شكاكاً فى توحيد الله تعالى . ومثله فى اليقين قول المؤمن : (إنِّى ظَنَنْتُ أنِّى مُلاَقٍ حِسابِيَهْ) أى أيقنت ومثله قوله تعالى : (فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا) . ومما جاء فى كلام العرب فى الظن الذى هو يقين قول دريد بن الصمة :

فقلتُ لهم ظُنوا بألْفَىْ مقاتل سراتهم فى الفارسىّ المسرَّد

أى أيقنوا . ولذلك قال بألفى مقاتل ، لأنه خوفهم لحاق جيش عطفان إياهم .

ويدخل فى باب الاختلاف أبواباً من الدراسات القرآنية والبيانية المتصلة باللفظ ومعناه . كالتزاوج والجناس . يقول : قوله تعالى : (لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) معنى واحد كقولك نظرته وانتظرته ، وقدرت عليه واقتدرت عليه ، وحفظت واحتفظت ، وجرح واجترح »

وهذا الاختلاف فى الشكل - أى فى صيغة اللفظ وبنائه لا المعنى - . والمبرد يخالف النظرية المعروفة فى اللغة والتى تقول بأن زيادة المبنى فى اللفظ دليل على زيادة المعنى فى هذا المقام .

وقوله تعالى : (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) المعنى فاقتصوا منه . يمزج اللفظ بلفظ ما قبله . كقول العرب الجزاء بالجزاء . والأول ليس بجزاء . وتقول فعلت بفلان مثل ما فعل بى أى اقتصصت منه . والأول بدأ ظالماً . والمكافىء إنما أخذ حقه . فالفعلان متساويان . والمخرجان متباينان . إذ كان الأول ظالما .

ومثله : (وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها) والثانية ليست سيئة تكتب على صاحبها . ولكنها مثلها فى المكروه . . . إلخ [1] .

٣ وقد تصلح اللفظة لشيئين فتستعمل فى أحدهما لأنها له كما للآخر فلا نقص فى ذلك ولا تقصير . ولو ذكرت فى غيره مما هى له لكان ذلك محلها . قال جرير :

إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفنا من الخليفة ما يُرجى من المطر

يعنى به الذى هو الغيث . . . وهذا كثير فى كلامهم . كما جاء فى ذكر الغيث : (وأنزلنا من السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فأنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ [2]) الآية فلم يكن الإنزال مخصوصاً به الغيث دون غيره ولكن يكون له كما يكون لغيره ، ألا تراه تعالى لما ذكر الغيث فأجراه فيه فقال : (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّماءِ) . فهذا ما ذكرنا أن لفظه مشترك فيه معنيان يختص به أحدهما فى الموضع .

(١) ص ١٢ — ١٣ .
(٢) ص ٥٠ — ٩ .

ومما جاء فى الكتاب إطلاق لفظ الجمع على المفرد والمثنى [١].

ومما جاء متفق اللفظ مختلف المعنى : (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ) ومثله : (هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ) و (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) يقول موبخون ناقضاً للخبر الأول تعالى عن ذلك ، وكان مجاز قوله : (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ) أى لا يسأل عن ذنبه ليعلم ذلك من قبله . والدليل عليه قوله : (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) [٣] ، وقوله : (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) يقول موبخون . كما يقول المعاقب للمعاقب ألست الفاعل كذا ؟ أتذكر يوم كذا ما فعلت . ليس ليعلم ذلك من قبله ولكن لتوبيخه بما فعل . وقد يقال لغير صاحب الذنب احتجاجاً على ذنبه وتوبيخاً له : أما قلت لك هذا ذنب . وأما تعرف من هذا مثل ما أعرف . أأنت قلت لهذا ما ذكره عنك . على علم السائل أنه لم يقل كقوله تعالى : (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) الآية ليوبخ بذلك من حكاه عنه .

ويتكلم عن الاختلاف فى معنى أسلوب الاستفهام إلى التقرير ، أو التوبيخ على طريق المجاز : فمجاز ما يقع من هذا تقريراً لا استفهاماً فى مدح أو ذم مجاز قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وكقول كثير :

أليس أبى بالنضر أم ليس والدى لكل نجيب من قضاعة أزهر

وقال الله تعالى : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) [٤] و (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ) [٥].

(١) ص ١٩ ، ٢٠

(٢) ص ٤٤ ، ٣٩

(٣) ٤٤ ، ٤١

(٤) ٣٩ ، ٣٦

(٥) ٢٩ ، ٣٠

ومما جاء فى القرآن عن هيأتين فى الاستفهام فوقع فى أحدهما التبيين ، ولا يقع على الآخر ، على أن يخرج الاستفهام فيها جميعاً مخرج التقرير والتعظيم قوله تعالى (وَمَا أَدْرَاكَ) و (وَمَا يُدْرِيكَ) ، فما كان من قوله يدريك بغير مبين ماهو فى القرآن [1] وأكثر ما جاء فى قوله : وما أدراك ماهيه ، ثم قال : (نَارٌ حَامِيَةٌ)… ثم قال فى الحاقة : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ) ولم يقع بعد ذلك تفسير . ومجاز هذا عند أهل النظر حذف الخبر لعلم المخاطب ، يريد تعظيم الأمر كقولك : لو رأيت فلاناً وفى يده السيف أى لرأيت بارعاً . فاستغنى عن ذلك .

وينتقل إلى حذف الخبر ، ثم يتابع إيراد بعض المسائل فيه كالحذف فى قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ) لكان هذا القرآن ، وكان جواب قولهم إيت بقرآن غير هذا أو بدله . وعلى حذف الخبر كقول الراجز :

لو قَدْ حَدَاهُنَّ أبو الجودى برجز مُسْحنفر الروىّ
مستويات كنوى البَرْنى

ويتكلم عن الإيجاز – بغير الحذف – ويسميه الاختصار فيقول « وفى القرآن مختصرات ، فإن مجاز كلام العرب يحذف كثيراً من الكلام إذا كان فيما يبقى دليل على ما يلقى ؛ فمن ذلك : (واسْأَلِ القَرْيَةَ) . لما كانت القرية والعير لا يسألان ولا يجيبان علم أن المطلوب غيرها . ولا يجوز على هذا جاء زيد ، وأنت تريد غلام زيد ، لأن المجىء يكون له ، ولا دليل فى مثل هذا على المحذوف ومن المختصر فى القرآن قوله تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ) معناه أن الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع ، معناه أن

[1] العبارة مضطربة ولعل أنه يريد أن ... [illegible] ... فى القرآن بدون الجواب كما أن ... أدراك بعده جواب إلا قد ... (ص ٢٨ ...)

الذين كفروا يتشبهون بالمنعوق وهي الشاء وأنتم كمن ينعق بها. فتأويل الكلام — مثل الذين كفروا ومثلكم، أو مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، فاختصر وحذف كقول النابغة :

كأنك من جمال بنى أقيش   يقعقع خلف رجليه بشن

ومن اختلاف اللفظ ما يسميه التحويل ، أو الانتقال . وهو المقلوب ووقوع المفعول إلى الفاعل عند أبي عبيدة .

يقول : ومما في القرآن مما يجيء مثله في كلام العرب من التحويل كقوله : (وآتَيْناهُ من الكُنُوزِ ما إنَّ مَفاتِحهُ لتنوءُ بالعُصْبَةِ) وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح . ومن كلام العرب إن فلانة لتنوء بها عجيزتها . أو يقول : أدخلت القلنسوة في رأسي ، وأدخلت الخف في رجلي. وإنما يكون هذا فيما لا يكون فيه لبس ولا إشكال ، ولا وهم ، ولا يجوز ضربت زيداً وأنت تريد غلام زيد . ومن كلام العرب قول الأخطل :

أما كليبُ بنُ يربوع فليس لهم   عند التفاخرِ إيرادٌ ولا صدرُ
مُخلَّفون ويقضي الناسُ أمرَهُمُ   وهم بغيب وفى عمياء ما شعروا
مثل القنافذ هَدّاجون قد بلغت   نجران أو بلغت سوءاتهم هجر

كذا رواه أبو عبيدة وغيره مما أخذنا عنه[1] .

وبعد فهذه من أهم المسائل البيانية التي تعرض لها المبرد في بحثه اختلاف معاني الألفاظ في القرآن . وهذه الدراسة قصيرة ولكنها هامة لأنها تدل على أن بعض مسائل اللغة كانت تختلط بالمسائل الأسلوبية أو البيانية الأخرى . كما تبين أيضاً مدى الاهتمام الذي أولاه علماء اللغة والأدب لقضية اللفظ والمعنى أو المداول .

(١) الاختلاف للمبرد ص ٣٨ — ٣٩

ولعلنا نذكر مقدار اهتمام ابن قتيبة بهذه القضية فى كتاب « مشكل القرآن » وفى كتابه الصغير « الاختلاف فى اللفظ والرد على المشبهة » وإن كان الأخير ألصق بمعانى العقيدة .

٦ ــ كتاب الأجناس لأبى عبيد القاسم بن سلام :

ويمت منهج هذا الكتاب وموضوعه بسبب إلى الكتب والدراسات السابقة فى مدلول اللفظ وهو سابق لكتابى المبرد والأضداد لابن الأنبارى . ومعاصر للأصمعى وأبى حاتم ، واسمه « كتاب الأجناس من كلام العرب . وما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى [١] .

ومنهجه متقدم ، وربما نهج فيه نهج كتاب الأصمعى فى الأجناس [٢] ، ولكن لم يفرد كتاباً للأجناس . فيما يظهر من مقدمته [٣] بل استخرجه المتأخرون أو بعض تلاميذه من كتابه فى غريب الحديث . ويجرى على المثال التالى :

البيظ . القشر الرقيق ، الذى يكون داخل قشرة البيضة . والبيظ ماء قليل يكون فى النقرة التى تكون فى أسفل البئر . والبيظ خيال الوجه فى السيف . والبيظ بيظ النمل . والبيظ ماء الرجل [٤] .

الكتوم الكتوم للسر . والكتوم الليل . والكتوم الناقة القليلة الرغاء . والكتوم المدم . والكتوم الشراب يذهب بالعقل . والكتوم الثلج يستر الأرض ، وكل شىء ستر شيئاً فى كلام العرب فقد كتمه .

الجنان . الليل . وإنما سمى جنانا لأنه يجن كل شىء بظلمته . والجنان الفؤاد . وإنما سمى جنانا لأنه يجن السر . والجنان الترس . وإنما سمى جنانا لأنه

(١) طبع الهند ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٨ م بتصحيح امتياز على عرشى
(٢) ذكره ابن النديم فى الفهرست (٢٥ ط . . . درشمكى)
(٣) المطبوع والمخطوط ٧٤ لغة بدار الكتب
(٤) ص ١ .

جنة من السيف والرمح والجنان الثوب الأعلى على الثياب [١] » .

وقريب من هذا النهج ما فعله أبو العميثل في كتابه [٢] . ولكن أبا عبيد القاسم يحاول أن يعلل التعدد في معاني اللفظ الواحد . فيمهد للبحث في الاشتقاق

وبعد فهذه أهم بحوث مدلول اللفظ في القرن الثالث . وقد بينا فيه دور القرآن في التأليف وفي توجيه البحوث . وأشرنا إلى أنه كان الدافع للعلماء للتحصيل والنظر للرد على المطاعن . فكان محصول ذلك بحوث اللغة المختلفة ومن بينها بحوث المدلول اللفظي .

وحاول العلماء وضع قواعد لحفظ لغة القرآن والحديث . ثم توسعوا فأطلقوا هذه القواعد لتحكم اللغة جميعاً . وحكموا القرآن فيها . وجعلوا نصه مقياساً لها . وآياته في مقدمة شواهدها .

وانتهت بنا هذه المرحلة إلى آخر القرن الرابع . وبرزت خلاله بحوث جديدة وجهود أضيفت إلى سابقاتها . وطلعت علينا دراسات الاشتقاق . وحمل لواءها ابن دريد . ثم تابعه أحمد بن فارس . وابن جني وغيرهما . واستمع هؤلاء ببحوث من ذكرنا في الأضداد واختلاف اللفظ وظهرت كذلك المعاجم اللغوية يستأنفون بها عمل الخليل . ويتممون بما جمع السابقون في كتب المفردات التي سبق الكلام عليها . ويطلع علينا ابن دريد . وأبو علي القالي . والجوهري وغيرهما بمعاجمهم .

وتتطور الدراسات اللغوية وتتشعب في القرن الرابع ولكنها تنتفع بالدراسات السابقة في القرن الثالث التي لمسنا أثرها القرآن ودراساته مباشرة أو عن طريق غير مباشر .

(١) ص ٤ .
(٢) [illegible] ١٩٢٥ .